

المقابر

البيزرة وكتاب فيه

مدخل البحث

بين جمادى ورجب سنة ١٣٣٢ دعاني ورفيقي في في النجف سادن إلى دار له لصق مسرر المشهد العنوي فنثر بين أيدينا من الأجلاد والأوراق والأجزاء والطباق ما أرائنا العجب والعجاب. نقيسات آثار شعثها الإهمال وطسها الابتدال، مبنوة في ناحية غامضة نبذك سقط المتاع منقاة نالت منها الأرضة والحشرات أضعاف ما اقتبسه العقول النيرات. وقد علاها من الزبل وسنح الطيور ونحوها ما غير محاسنها وأخلق كريم دباحتها. فانتشنا من الجملة الجزء الأول من نواظر العيون في مختصر تذكرة ابن حمدون المتوفى سنة ٥٦٢ لم نعرف صاحبه غير أنه صنع برسم الخدمة المولوية السنطانية الصالحية حطه حسن جداً يرتقي إلى القرن السابع. وأورد في كشف الظنون (منتخب الفنون في مختصر تذكرة ابن حمدون) وهو مختصر آخر والأصل من أمهات دواوين الأدب والتاريخ. قطعة من كتاب في المقصور والمدود من أجود ما جرد في هذا المعنى بخط قدم مشكول. شرح أبي الحسن علي بن أحمد الراحمدي المتوفى سنة ٤٦٨ على ديوان الخبي

وبما ارتقى نسخه إلى عصر المؤلف أو ما يدانيه. كتاب السكردان تأليف ابن أبي حجلة المتوفى سنة ٧٧٦ مخطوطاً على عهد المؤلف. كتاب البيزرة وهو من حيث الموضوع أهم الجميع فأثرت نعتة ونشر شيء منه للقراء غير أن هذا يستلزم إيراد كلمة عن هذه اللفظة في اللغة وفي الآثار.

لفظة البيزرة في اللغة

البيزرة والبيزرة بمعنى صناعة سياسة البزاة أو حرفة القيام على الجوارح وتعهد عتاق الطير من المفردات الدخيلة في كلام العرب وهي من قولهم بيزار معرب (باز - يار) أي صاحب الباز أو من قولهم بيزدار معرب (باز - دار) أي ذي الباز في الفارسية أو أن بازيار وبازدار لغتان. وقيل أنها بالبدال مولدة وأن الأصل بيزار قال الكسيت:

كأن سوابقها في الغبار ... صقور تعارض بيزارها

وبالبدال جاءت في قول أبي فراس

ثم تقدمت إلى الفهاد ... والبازدارين باستعداد

ويكثر في لسان العنساء والفصحاء دوران بازيار وبيزار جمعوها في التكسير والتصحيح على بيازرة وبازيارين وبازيارية. على أن للعرب الأقحاح أن يستعملوا مكان بازيار الأعجمية لفظة بياز العربية الصرفة دلالة على اتساع ذرع لغتهم وعدم ضيق عطفها في شيء وقد قالت العرب في قياس قولهم بياز صقار وعقاب لقيم الصقورة والعقبان كما قالوا في هذا الباب كلاب وفهاد وقيال ونحو ذلك وهو متداول مشهور. وإنما أضاف اللغويون صناعة البيزرة إلى البزاة مع أنها تتناول غيرها من الجوارح لأن البزاة أجراها وأجزاها وابتغها أثراً في الصيد. وقد كان لهذا العلم عندهم شأن خطير.

علم البيزرة عند العرب

تلقى العرب صناعة البيزرة على ما يظهر من آثارهم عن تقدمهم والمرجح أنهم عرفوها أولاً بسليقتهم واختيارهم لمزاوتهم تغرية سباع الطير. عنى أن منوكمهم فضنوا الصقور على ما دونها وقلما روي شريف من العرب يستحسن حمل الباز لأن ذلك من عمل (البازيار) بخلاف الصقور والشواهين. ولا يدري لذلك علة إلا أن الصقر عندهم عربي والباز أعجمي ثم لما نضجت مدينتهم أضافوا إلى ما عندهم ما وجد في كتب اليونان والفرس والرومان عن هذه الصناعة فسيبلهم فيها سبيل البيطرة وقد تلحق بها وتعد بمكان الفرع منها. وما أوثق لحمة النسب عندهم بين البيطرة والبيزرة أو بين طب الخيل أو طب الطير بل وطب الإنسان. فكل طب. وربما دونوا الثلاثة في ديوان وأشركوها في عنوان:

وقد مضى لهذه الحرفة شأن كبير في حدثان ما كان من دولة العباسيين فبلغ من عنايتهم بها وأهلها أن رسمهم في الأعطيات والفرائض فأخصبوا وأفادوا أكثر من كثير في المهنة وأرباب الصناعات حتى قالوا إن البيازرة أغنى ممن يتاع منهم وجاء في قائمة نفقات المعتصم (سنة ٢٧٩ - ٢٩٥) خمسمائة دينار مشاهرة أصحاب الصيد من البازيارين والكلازييرين وثمان الطعم والعلاج وقيل كانت مياومتهم سبعين ديناراً.

ثم أن هذه الصناعة نفدت فيما نفذ من علوم المشرق إلى الأندلس بالمغرب فعني بحملتها بعض أمراء تلك الديار منهم نجم بن طرفة (سنة ٣٣٠) الملقب صاحب البيازرة وهو على ما يظهر من أهل التأنيق في المعيشة. ولما لم تكن البيزرة من الصناعات الضرورية التي عبت بها البلوى عندهم تراجعت وتأخرت وقتت بل انتفت تدريجياً دراستها من حيث

أما فن من الفنون المدونة فدرست أو كادت حتى أن المتكلمين على تاريخ الفنون والآداب العربية لم يشيروا إليها في الأغلب. وأصبح من لهم العناية بأمور الجوارح على قلتهم يربونها تربية مأخذها التجربة والاختبار لا الصحف والآثار كما يشاهد الآن في بعض الأقطار العربية والأعجنية. هذا وقد عرف في الطبقة الأولى جماعة من مشاهير البيازرة.

مشاهير البيازرة

إنه لشيء لا ينقضي العجب منه أن يكون بين أئمة هذا الفن عند العرب مثل الغطريف من صحب الرشيد. هاشم. أدهم بن محرز. سعد بن عقير يستشهد بأقوالهم ويحتج برواياتهم وأنقالهم ثم لا يتسع لهم مجال كتب الترجمة والتاريخ وتضيق عنهم صدور المعاجم معاجم الأطباء والحكماء. وإنما يجيء ذكرهم عرضاً في بعض الآثار الموضوعة في صناعتهم سموهم فيها تسمية مجردة. وقد سموا غير من مر من أعلام البيازرة. سومارس. صرغيث النبطي. ابن العوام لعله أبو زكريا يحيى بن محمد بن العوام صاحب كتاب الفلاحة نقله عن اليونانية. قسطوس الرومي لعله قسطوس بن اسكور صاحب كتاب الفلاحة الرومية وهم كالجاهيل أغفلهم أصحاب معاجم الأعلام والطبقات مع أن بعضهم من رجال صدر الدولة العباسية ويغلب على الظن أن بعضهم من السريانيين المستعربين الذين كثر بينهم حذقة العلوم القديمة ونقلتها إلى العربية إذ ذاك.

البيزرة في الكتب

قلنا تكلم على البيزرة من الوجهة العلنية عالم أو أديب في كتاب اللهم إلا الشيخ داوود الأنطاكي المتوفى سنة ١٠٠٨ فقد أملى فيها نحو أربع قوائم من التذكرة مورداً في ترجمتها

لفظ بزدرقة نقلاً عن أهل هذا الفن معترفاً بقلتهم. وأورد فيها الحاج خليفة المتوفى سنة ١٠٦٨ ثلاثة أسطر فقط نقلاً عن جامع السعادة لطاشكيري زاده بلفظ بيزرة والظاهر أنه لم يقف على كلام الأنطاكي وإلا لزاد. وفي بعض الكتب الفارسية عنها شيء لعله منقول على العربية مثل ما في كتاب تحفة المؤمّنات تأليف حكيم مؤمن المتأخرين وفي دائرة البستاني عنها كلمة لم تستوعب عموداً ترجمتها بزدرقة.

وقد تكلم على طباع الضواري والسباع من الطيور استطراداً لا من باب الخوض والتشسير في الفن جماعة منهم المسعودي في مروج الذهب والقزويني في عجائب المخلوقات والدميري في حياة الحيوان وغيرهم في غيرها كثير.

الكتب في البيزرة

إن مجموعة ما ألفناه من الكتب المجردة في البيزرة ضئيلة جداً إليك أهمها: كتاب البزاة والصيد تأليف الأمير أبي دلف العجني المتوفى سنة ٢٢٥ القانون في البيزرة في الخزانة التيمورية وفي كشف الظنون نقلاً عن جامع السعادة أنه كاف في هذا العلم وسماه القانون الواضح ولم يسموا المؤلف. أنس الملا بوحش الفلا في البزدرقة تأليف محمد بزمكلي نقيب الجيش المصري ي أواخر القرن الثامن رقمه ٢٨٣٤ في خزانة باريس. رسالة في البزدرقة تأليف قبادانيوس الحكيم الفينسوف تاريخ نسخها سنة ٩٢٣ في هذه الخزانة. القواعد الخيرة في البيطرة والبزدرقة للأنطاكي وهناك آثار تعمم الصيد بالكلاب والنبل والنشاب وهي كثيرة ولا قسم الموضوع مساس الكتب المتقدمة نذكر من جملتها كتاب المصائد والمطارد تأليف أبي الفتح كشاجم المتوفى سنة ٣٣٠ انتهاز الفرس في الصيد والقنص للشيخ تقي الدين بن همزة بن عبد الله الناشري ألفه بزييد سنة ٩١٠

مناهج السرور والرشاد في الرمي والسباق والصيد والجهاد تأليف زين الدين عبد القادر ابن أحمد بن علي الفاكهي رقمه ٢٨٣٤ من خزانة باريس. وقد وصف كواسب الطير وكواسرها ونعت أحرارها ومصرحاتها وكيفية تخليتها وإرسالها ونحو ذلك مما نحن فيه فريق من شعراء العرب أشهرهم أبو نواس وأبو فراس والناشي وكشاجم وصفي الدين في قصائد مزدوجة سميت الطرديات وهي مشهورة. ومن أهم ما عثرنا عليه من كتب هذا الفن كتابنا في البيزرة.

كتابنا في البيزرة

أول شيء في هذا الكتاب إغفال تسمية مؤلفه فيه وأنه خال من البسلة والحمدلة عار من تقديم مقدمة قبل الشروع في المقصود. وعلة ذلك أخرجناها فيما قدمنا من انقطاع دابر هذا الفن وأهله حتى لم تتألف من مشاهيرهم إلا طبقة محدودة ما أدركنا منها إلا الأسماء الجردة سيما وكثير منهم من غير أهل الإسلام. وليس هذا الكتاب ما ألف للإسكندر الرومي ثم نقل إلى العربية كما يظهر مما جاء على ظهره وهذا نصه كتاب البيزرة صنف الحكماء المتقدمين لملك الإسكندر الرومي وهو كتاب عجيب مما يصلح بالملوك إذ لا بد لكل ملك من مسير إلى صيد بأحد هذه الطيور الجوارح والذي أوقع الوراقين في هذا الوهم ما ورد في نحو الكتاب من إن ثقات الروم من أهل المعرفة ذكروا أن الإسكندر الرومي قال للحكماء اختفين بخدمة أريد أن تعرفوني بطبيعة الباز وأمراضه وعلامة كل مرض ودائه وهل طبيعة الباز تقارب طبيعة الآدمي أم لا؟. وأنت تعلم قصور هذه العبارة فيما يدعون. كيف وفي الكتاب نقل كثير عن حكماء العرب والمستعربين ومنهم من صحب الرشيد!! فالكتاب إذاً من طرائف عصر عربي راق كما يظهر أيضاً من

أسلوب إنشائه السهل الممتنع البليغ. ولا يعد أن يكون مؤلفه من رجال أواخر القرن الثالث أو أوائل الرابع للهجرة. يدلنا على ذلك أن المسعودي المتوفى سنة ٣٤٦ أورد في مروج الذهب عن الجوارح فصلين نرجح أنهما منقولان عن هذا الكتاب باختلاف يسير كما سيقع الإيماء إلى ذلك.

وروى لنا خير أن في خزانة باريس كتاب رقمه ٢٨٣١ بدون اسم إلا أنه كتب على ظهره بخط غير خطه كتاب الجوارح والبزدرية تصنيف الفيلسوف أبو بكر ابن يوسف بن أبي بكر بن حسن بن محمد القاسمي القرشي العلوي الأشعري تاريخ كتابه سنة ٨٤٨ هـ.

فاسم هذا الكتاب طبق الخز وأصاب المفصل من الكتاب المائل أمامي الآن لكن لا تزال حقيقة مؤلفة مبهمة مجهولة. هذا وكتابنا جزآن أو مقالتان في المقالة الأولى ٥٢ باباً في تاريخ الصيد بالجوارح وتقسيبها إلى أقسامها وكيفية تربيتها وسياستها ثم إرسالها على غايتها وفي المقالة الثانية ٦٣ باباً في أدواء الجوارح وعملها وما يتخذ لعلاجها من المركبات فجملة الأبواب ١١٥ باباً في حجم ١٤٥ قائمة أو ٢٩٠ صحيفة صغيرة مخطوطة خطأ واضحاً متأخراً اليطه بخطائها العد وفي آخره وقع الفراغ من كتابة هذه البزرة ثار السبت ١٠ جمادى الأخرى سنة ١٢٠١ من الهجرة على يد ملامط بن عبد الله الطرقي.

النجف -

محمد رضا الشيبهري

الشاعر